سلاطين السودان وملوكه

كان في السودان قبل الفتح المصري الاول في زمن محمد علي باشا كثير من الملوك والسلاطين بعضهم على جانب من المنعة وضخامة الملك كملوك سنار في الشرق وسلاطين دارفور في الغرب وكانت اكثر الممالك الصغيرة تؤدي لهم الجزية وتستقل في احكامها وقد ذكر برکهارت وكان في السودان قبل الفتح بيضع سنوات ان بين دار محس وسنار لا اقل من عشرين مملكة صغيرة تؤدي الجزية لملوك سنار من الفونج

وقد بادت اكثر هذه الممالك ولم يبقَ منها الا اسمها فقط على ان ابناء ملوكها لا يزالون يلقبون بالملوك الى اليوم مثل الملك ضميل ملك جزيرة ارقو في دنقلة والملك فرح بن محمد ملك الرباطاب وغيرهما وساعود الى ذكر هؤلاء الملوك فيما بعد . وبقي لبعض الملوك والسلاطين في اطراف السودان شيء من الاستقلال تعترف به الحكومة وقد جاء بالامس ثلاثة منهم الى الخرطوم فاكرمت الحكومة وفادتهم وانزلتهم على الرحب والسعة وارسلتهم الى بورت سودان ليروا سكة الحديد والبواخر والبحر الاحمر ثم اعادتهم الى بلادهم مزودين بالهدايا . وترى صورتهم في هذا الرسم ومعهم حاشيتهم فاولهم من الشمال السلطان احمد فرتاك سلطان فروق في الشمال الغربي من بحر الغزال وكان سلاطين فروق في سالف الزمن يؤدون الجزية للسلاطين دارفور . وينتسب السلطان احمد الى العباسيين وكان قبله على كرسي السلطنة موسى بن حمد وهو الآن في ام درمان يتناول راتباً من الحكومة . وكثيراً ما كنت اقرأ المكاتيب التي كان يرسلها السلطان موسى الى المرحوم صاركس باشا في بحر الغزال ويوقع عليها هكذا « السلطان موسى بن حمد العباسي نسباً والمالكي مذهباً » . وكانت رسائله مكتوبة بلغة عربية فصيحة وخط فارسي جميل وقيل لي ان الانشاء والخط له . ولم ارَ السلطان موسى لكنني رأيت اخاه السلطان احمد وجرى لي حديث معه فوجدته لا يحسن النطق بالعربية بل يتكلمها كما يتكلمها الاعاجم وهو اسود اللون لكنه ضبط الشعر وملامحه تدل على انه من اصل عربي . واخبرني الامير عبدالحميد ابن السلطان ابرهيم آخر سلاطين دارفور ان سلاطين فروق عرب لكن اهل البلاد من الجنس الاسود كما هي الحال في كثير من الممالك الاسلامية في السودان الغربي

والثاني في الرسم هو السلطان ناصر اندل كان يوقع على رسائله هكذا « السلطان ناصر بيك اندل » وهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة وقيل لي ان وخطه في السنة نحو الف جنيه

وعنده من الرجال نحو ٥٠٠ مقاتل بعضهم مسلح بالبنادق نكنها من حرز قديم

والثالث السلطان سعيد بلداس من سلاطين بحر الغزال ايضاً وهو مسلم عربي كما يستدل من اسمه ويظهر من ملامح الثلاثة ان الدم الاسود غالب فيهم

وفي اطراف السودان الغربي سلاطين كثيرة غير هؤلاء بعضهم مسلمون وبعضهم وثنيون اخذوا اللقب عن العرب المجاورين لهم فان الوثنيين البعيدين عن الاعراب لا يعرفون هذا اللقب او كانوا لا يعرفونه الا من عهد قريب كسلاطين النام وغيرهم . ويظهر ان لقب سلطان غالب في السودان الغربي فان اقرانهم في الشرق يلقبون بالملوك او المكوك مفردها

سلاطين بحر الغزال (١)

ملك وفي مخفف ملك وهذا التخفيف كثير عندهم فيقولون ود مثلاً عوضاً عن ولد كود النجومي وود عجيب وما اشبه . لكن في الغرب كثير من الملوك ايضاً وكلهم وثنيون ولا اعرف بين سلاطين الغرب من المسلمين من يلقب بالملك او الملك واما مسلمو الشرق فانهم يلقبون بالملوك . ويظهر ان لا فرق عندهم بين لقب سلطان ولقب ملك في العظمة فملوك سنار مثلاً كانوا اعظم ملوك السودان ولم يلقبوا بالسلاطين وسلاطين دارفور كانوا يضاهون ملوك سنار في ضخامة الملك والبأس ولم يسموا انفسهم ملوكاً . والملك نمي كان يقطع الطريق على القوافل في جوار ابي حمد فجاءه من العبابدة من قطع رأسه وارسله الى مصر في زمن محمد علي باشا

(١) نصورجورج افندي مرقص صاحب الاجزاخانة الانكليزية في الخرطوم

وكان وقتئذٍ في الحجاز فارسلت اليه اذقاده على سبيل الهدية - والسلطان الماس في دار عاصمته ثلاثة اكواخ لا غير وقد كان صديقاً لي وكنت كلما خرجت الى الصيد آخذه معي فانه كان يتكلم العربية قليلاً ولم اكن اعلم انه سلطان فقلت له مرة يا الماس احب ان ارى واحداً من سلاطينكم قال انا سلطان قلت واين مملكتك قال كان ابي سلطاناً كبيراً عنده نحو ٣٠ مقاتلاً لكن اكثر رجاله هلكوا . ثم اخذني الى دار منكم واذا فيها ثلاثة اكواخ فقط ولا اعلم ماذا جرى به الآن

وكثيراً ما كان يتردد على واو عاصمة بحر الغزال سلطان الفولو واسمه كيانقو او لعل هذا الاسم اسم ابيه . جاءنا مرةً زائراً وكان معه نحو ٥٠ رجلاً من اتباعه وهم يضربون الطبول وينفخون بالابواق امامه فخرجنا للاقائه ونزل في ضيافة الحكومة هو ورجاله ثلاثة ايام واشتريت منه بوقاً مصنوعاً من ناب الفيل واعطيته الثمن خرزاً وملابس عسكرية بعد ان نزعت عنها علامة الرتبة وبقي اختلاف بيننا على الازرار النحاسية فان لها قيمة كبيرة في تلك البلاد واخيراً تركتها له وكانت آخر سترة عسكرية عندي . اما البوق ويسمونه أبابة في تلك البلاد فمصنوع من قلب واحد وطوله اكثر من متر ولم يزل محفوظاً عندي

بقي في الرسم صورة شخصين بالزي الافرنجي وهما ابنا مانبي من سلاطين النيام على مقربة من حدود الكونغو . والنيام قبائل كثيرة على كل قبيلة منهم سلطان مستقل . وفي بحر الغزال سلاطين وملوك كثيرون غير هؤلاء يتفاوتون في الغنى وعدد الرجال فمنهم من تعد رجاله بالالوف ومنهم من لا يزيد جيشه عن ٣٠ رجلاً . وتكاثفهم الحكومة برتب خاصة بالسودان وهي ثلاث درجات اولى وثانية وثالثة وهاك نص ما يكتب مع واحدة منها

عريضة كسوة شرف

نحن حاكم السودان العام قد انعمنا على السلطان او الملك او الشيخ ..... بكسوة شرف من الدرجة الاولى لحسن خدماته وولائه للحكومة واعطيناه هذا يده اشعاراً بذلك

حرر في ..... سنة .....

هذا شيء يسير عن سلاطين الغرب اما ملوك الشرق فقد بادوا جميعاً ولم يبقَ منهم الا بعض ابنائهم ويلقبون بالملوك الى اليوم منهم الملك بشير ود سعد من ملوك الشايقية وانظاره لا يزال مقيماً في المعادي من ضواحي القاهرة . ومنهم النبي بك عبد الماجد عمدة بربر وهو من ملوك المبرقاب كانوا ملوكاً على مدينة بربر . والملك محمد ود عبد الماجد من ملوك الرحامات في دار مالي على مقربة من نهر الاتبرة . اما اعقاب الملك النمر الشهير الذي قتل اسمعيل باشا

ابن محمد علي باشا في شندي فلم يبقَ منهم احد في تلك النواحي لكن بعضهم يقيم الآن في اعالي نهر الاتبرة على حدود الحبشة

واول من دخل السودان من الافرنج وكتب عن ملوكها طبيب فرنسوي كان مقيمًا في القاهرة اسمهُ بونسي (Poncet) استدعاهُ ياسو نجاشي الحبشة ليداويهُ من علة كانت قد اصابتهُ فسار اليهِ بطريق دنقلة وسنار وبصحبتهِ احد اليسوعيين وكان ذلك في سنة ١٦٩٨ . وقد ذكر في كتاب رحلتهِ انهُ لقي ملك دنقلة لذلك العهد وملك سنار وغيرهما من ملوك تلك البلاد فقبلوهُ بالترحاب لانهُ كان يحمل جوازاً من ملك الحبشة لكنهُ اخطأ في زعمهِ ان ملوك تلك البلاد كانوا يؤدون الجزية لملوك الاحباش ويظهر لي انهُ بنى كلامهُ هذا على حسن مقابلتهم لهُ ولم يكن فعلهم الاَّ من قبيل المجاملة للنجاشي . فانهم بعد ذلك بيضع سنوات قتلوا رسول لويس الرابع عشر وكان يحمل جوازاً من النجاشي ونشبت بسببهِ الحرب فيما قيل بين بادي ملك سنار وياسو ملك الحبشة وكان النصر فيها لملك سنار

واحسن ما كتب في وصف سنار وملوكها للملك العهد تجدهُ في رحلة السر جامس بروس الشهير وكان قد اقام زماناً في بلاط النجاشي ثم استأذنهُ في العودة الى بلادهِ فاذن لهُ وزودهُ بكتاب الى اسمعيل ملك سنار وذلك في سنة ١٧٧٢ . ووصف بروس مملكة سنار والممالك التي كانت خاضعة لها وصفاً مسهباً وقابل ملكها اسمعيل وكبار رجالهِ ومكث هناك اشهراً . ولما دخل على الملك وجدهُ جالساً على وسادةٍ فوقها بساط عجمي وكان عليهِ ثوب من القطن ازرق اللون لا يختلف كثيراً عما يلبسهُ عبيدهُ . وقال انهُ كان في الرابعة والثلاثين من عمرهِ لا يختلف في اللون عن كثيرٍ من الاعراب . وقدَّم لهُ كتابين احدهما من النجاشي والآخر من شريف مكة وناولهُ كتاب النجاشي اولاً فأخذهُ لكنهُ قرأ كتاب الشريف قبل ان قرأ كتاب النجاشي

واشتكت نساء الملك وكنَّ ثلاثاً من امراضٍ بهنَّ فارسلهُ الملك لمداواتهنَّ فدخل دار الحريم ووجد الملكات الثلاث جالسات بين جواريهنَّ . وقد وصف احدى هؤلاء الملكات قال «طولها لا يقل عن ست اقدام وهي سمينة جداً لم ارَ اعظم منها جثةً الاَّ الفيل والكركدن . في شفتها السفلى حلقة كبيرة من الذهب تهدَّلت بها الشفة حتى وصلت الى اسفل الذقن . اذناها كبيرتان جداً تصلان الى كتفيها وفي كل اذن قرط ضخم من الذهب لا يقل قطرهُ عن ست عقد ولثقلهِ اتسع خرق الاذن حتى صارت الاصابع تدخل فيهِ . على عنقها قلادة من الذهب وتحت القلادة اطواق مدلاة على صدرها وفي كل طوق صف من الدنانير

وقد لبست خلخالين من الذهب لا ادري كيف تستطيع السير بهما لثقلهما»

ولم يكن عند ملوك سنار اسلحة نارية في زمن بروس فكانت سلاح جيشهم الحراب والسيوف والدرق وكان بعض فرسانهم يلبسون الزرد . وقد ذكر سلسلة ملوكهم من اول تاسيس مملكتهم الى ايامه . ثم رحل من سنار الى شندي وقابل ملوكها واميرة من اميراتها ووصف البلاد وصفاً بديعاً ومر بمروي القديمة واهرامها ووصف آثارها وعاد الى مصر . وما زالت مملكة سنار قائمة الى ان تغلبت عليها الحكومة المصرية سنة ١٨٢١ امين المعلوف

فرنسكو فرر

سألنا سائل في الجزء الماضي عن رأينا في مبادىء فرنسكو فرر ومنزلته تجاه الانسانية ولما كان ما نعرفهُ عن الرجل مستخلصاً مما قرأناهُ عنهُ بعد قتله وكانت مقالة المسيو الفرد ناكه[1] اوضح ما قرأناهُ بياناً وعليها دلائل الصدق ولو خرج بعضها عن حد الاعتدال وعدنا بتلخيصها في هذا الجزء

قال الكاتب ان دون فرنسكو فرر غارديا رجل عصامي من ابناء قطالونية الذين شأنهم الدأب على نصرة العدل والحق غُرست فيهِ الاميال الجمهورية في الحوادث التي حدثت في اسبانيا بين سنة ١٨٦٨ و١٨٧٥ فحملهُ تزق الشبيبة على الشطط في مشوراته الثورية وأخذ بهذه المشورات في محاكمته الاخيرة اي حُسب عليهِ وهو ابن خمسين سنة ما جاهر بهِ وهو شاب في العشرين مع ان مدة عشر سنوات كافية لنجاة الانسان من جريمة ارتكبها اذا لم يحاكم عليها في هذه المدة واذا حوكم وحُكم عليهِ وافلت من يد العدل عشرين سنة لم يعد يعاقب ناهيك ان فرر اقلع عن آرائهِ الاولى اذ رأى ان اعمال الشدة والعنف لا تجدي نفعاً وان الطريقة الوحيدة التي توصل البلاد الى الارتقاء الحقيقي المبني على العدل والحرية هي نشر التعليم والتهذيب

وانا أعرف الناس بفرر وبكيفية إقلاعهِ عن آرائهِ الاولى آراء الشباب والطيش واستبدالهِ بها الرزانة والتؤدة فاني كنت من اكبر انصار زورلا الذي انقاد اليهِ فررفي حداثتهِ وقد ساعدت زورلا بكل جهدي وبكل ما املكهُ انتصاراً لطالبي الجمهورية من الاسبانيين وساعدت الذين هاجروا منهم الى فرنسا واغثتهم من المشاق التي عرضتهم لها

(1) Alfred Naquet (*Un des Sénateurs de France*).